"نشاط الحركة المذهبية الخارجية ببلاد المغرب الإسلامي
خلال القرن الرابع الهجري / ق10م " ثورة أبي يزيد الخارجي نموذجا"

د/ فاطمة بلهواري،

قسم التاريخ وعلم الآثار،

جامعة وهران.

Résumé:

Le mouvement kharijite au Maghreb musulman pendant le x siècle – Abou Yazîd Mukhallad ibn Kaydâd-

D/BELHOUARI Fatima, Univ. Oran- Histoire

Abou Yazîd Mukhallad ibn Kaydâd et surnommé l'homme à l'âne est un berbère Zénète de la tribu des Banou Ifren. Il suivit le dogme du Kharidjisme et devint le chef de la plus importante rébeon menée contre les Fatimides au milieu du X siècle

Abou Yazîd passe son enfance à Tozeur (Tunisie) où son père est un marchand transsaharien. Il reçoit un enseignement kharijite de tendance ibadite Nekharite.

Abou Yazid, et le chef de la secte Nekharite. Abd-el Hamid, dit l'aveugle, feront la guerre aux fatimide. La doctrine de ce Berbère farouche et énergique tenait en ces mots : chasser l'étranger, gouverner le pays par des assemblées choisies. C'est toujours l'esprit démocratique et nationaliste qui réapparaît sous le prétexte d'une guerre de religion.

sous Al Qaim (934 - 946), la pression fiscale et les conversions forcées au chiisme finirent par déclencher une insurrection Kharijite dirigée par le dénommé Abou Yazid.

Après la mort d'Al-Mahdî, Abû Yazîd part en campagne, à la tête des tribus Zénètes des Aurès chaouis Banou Zendek, Banou Berzal, Maghraoua et Azzaba. Il réussit à amalgamer toutes les oppositions au chiisme des Fatimides et obtient le soutien des sunnite malékites de Kairouan et l'indifférence calife de Cordoue Abd-Al- Rahman. En 934, il lance sa rébellion à partir des Aurès. Il cherche alors de l'aide auprès des Omeyyades d'Andalousie.

Les chefs des tribus Kutama et Sanhadja rassemblent une armée pour secourir les Fatimides. Aux abords de Béja, ils doivent affronter Ayûb, l'un des fils d'Abû Yazîd, qui les prend par surprise et les disperse. Ayûb, encouragé par cette facile victoire, se dirige vers Tunis qu'il reprend aux Fatimides. En janvier 946, Ayûb part à la conquête de Sousse. Il s'ensuit un siège acharné. Le19 Mai, pendant ce siège, le calife Al-Qaim meurt. Le combat reprend avec Ismail Al Mansour qui succède à son père.

Abou Yazid sème l'épouvante à travers le pays; il assiège Mahdia (944) durant des mois il faillit la prendre et pille les principales villes de Tunisie Sauvée par Ziri Ibn Manad dirigeant des berbères Sanhadja. Reprenant l'initiative, le 3ème calife Ismail Al Mansour (946 - 953) récupéra

Kairouan, érigea à proximité une nouvelle capitale, Sabra Mansouriya, et pourchassa Abou Yazid jusqu'au Maghreb central (947).

Bien que Kharijite, tendance Nekharite, Abou Yazid est soutenu par les Sunnites pressés de se débarrasser des hérétiques au pouvoir. Les exactions et les horreurs que commettent les hommes d'Abou Yazid finissent par lui aliéner la sympathie des masses sunnites. En 947, il tombe au combat et son corps empaillé sera exposé sur les murs de Mahdia. L'insurrection a vécu et le kharijisme sera presque éradiqué de la Tunisie.

Cette guerre a fait des désastres humains sur le sol tunisien et l'Est de l'Algérie. Abou Yazid sera contesté par les autres chefs de tribu et par la population par ses agissements tyranniques.

تقديم

إن الدارس لتاريخ الحركات المعارضة التي قامت خلال القرن الرابع الهجري /10م في بلاد المغرب يواجه بعديد من المشكلات، والتي هي في جوهرها تجسيد لمشكلات التاريخ الإسلامي بعامة، إذ تتنوع المصادر التاريخية والتي تزخر بتباين رواياتها لتأثرها بروح الإقليمية والتعصب المذهبي، بخلاف منظور المحدثين المحكوم بالتيارات الفكرية الحديثة، غير أنه لم يخرج عن ذات الرؤى السياسية والعنصرية والمذهبية، التي كان لها دور في إذكاء الصراع عبر التاريخ.

لقد ساعد العامل الديني بشدة تلك الحركات المعارضة والتي قامت في ظل الوجود الفاطمي ببلاد المغرب في مطلع القرن الرابع الهجري، حيث قدم لها الصفة الشرعية، غير أنه بدا ثانويا بالقياس إلى الرؤية الاجتماعية الشاملة، والتي يشكل الجانب المذهبي أحد جوانبها الموضوعية المفسرة لها. وتزعمت قيادة هذه الحركات عناصر مختلفة النحل والأهواء والاتجاهات، وقد شملت مناطق واسعة من برقة شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا، وظل لهيبها متوهجا حتى نقلت دار الخلافة الفاطمية إلى ديار مصر.(بلهواري، ف، 1991: 178- 294) وسنتناول الحديث في هذه الدراسة عن أخطر حركة قامت خلال هذا القرن وكادت نتائجها أن تؤدي إلى زوال الحكم القائم أنذاك، والمتمثلة في حركة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجية ضد الفاطميين.

أولا: نبذة عن الخوارج في بلاد المغرب

انتشر مذهب الخوارج بشقيه الصفري والإباضي انتشارا واسعا في بلاد المغرب خلال النصف الأول من القرن الثاني للهجرة /8م حتى صار للخوارج عدد كثير وشوكة قوية (الرقيق، ق، 1990: 74.البغدادي،ت، 1985: 218. المقريزي، ت، 1987: 119)

وقد حققت هاتان الفرقتان انتصارات تعدت الدعوة إلى تتويج سياسي وذلك بإقامة دولتين خارجيتين في بلاد المغرب، الأولى صفرية بسجلماسة تحت زعامة بني مدرار140هـ/757م، والأخرى إباضية بتاهرت تحت حكم بني رستم 161هـ/778م (إسماعيل،م، 1976: 110- 182. بن عميرة م، 1984: 67- 122) وقد أتاحت الظروف لهاتين الدولتين أن تنعما بالاستقرار السياسي والانتعاش الحضاري بعد حروب دامت أكثر من نصف قرن من الزمان.

تبدد شمل الخوارج وبخاصة منهم الفرع الإباضي بظهور الدعوة الشيعية الإسماعيلية ببلاد المغرب وقيام الدولة الفاطمية سنة 296هـ/ 909م.(النعمان،ح، 1986: 47- 306. إدريس، ق، 1985: 51- 118) فلاذت أعداد منهم مابين جبل نفوسة وواحة ورجلان وبلاد الجريد وضواحي تاهرت وبجزيرتي جربة وصقلية (أبو زكرياء،ي، 1984: 170. الدرجيني،ع، 1974،ج1: 94- 95) مما كان لهذه النهاية وقع طيب استغله الفاطميون في تحطيم قدراتهم على الوحدة والتجمع ضدها، إلى حين قيام الثورة الإباضية الكبرى يقودها أبو يزيد مخلد بن كيداد، فانضمت إليها مختلف العناصر الناقمة للحكم الشيعي الإسماعيلي.

ثانيا: أبو يزيد مخلد بن كيداد، نسبه، قبيلته، نشأته، مذهبه

لا توجد تفاصيل وافية عن حياته الأولى إذ لم تخصص له ترجمة في كتب السير والتراجم والطبقات لأن مؤرخي السنية والشيعية تعتبره خارجا على السلطة الشرعية، كما يعتبره مؤرخو الإباضية منشقا على مذهبهم، غير أنه عثر على شذرات قليلة من سيرته في كتب التاريخ العام. ولا يعلم من نسبه إلاّ ما ذكره عنه أبو محمد بن حزم نقلا عن يوسف الوراق عن أيوب بن أبي يزيد "أن اسمه مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن وريمت بن خوبنفر

بن سميران بن يفرن بن شانا" (ابن حزم، ظ، 2007: 495) وأكد كل من ابن عذاري وصاحب كتاب مفاخر البربر ذات النسب (ابن عذاري، م، 1983، ج1: 216. مجهول، 2005: 142)

أجمع غالبية المؤرخين أن أبا يزيد من بني يفرن الزناتيين (ابن حزم، ظ ،2007: 495. ابن الأبار، ق، 1985، ج1: 290. مجهول، 2005: 142. ابن الأثير، ش، د ت ،ج6: 303. أبو زكرياء، ي، 1984: 175)

عاصر أبو يزيد الأحداث الخطيرة التي تعرض لها الخوارج من تنكيل وتعذيب وتقتيل عند إقامته في تيهرت (ابن عذاري، م، 1983، ج1: 166)، ولا شك فقد كان لهذه الأحداث وقعا سيئا في نفسه وهو لا يزال صغيرا. وكان أبو يزيد قد تعلم مذهب النكار بمدينة توزر، حيث اختلط بشيوخهم فمال إلى مقالاتهم وأخذ بأصول مذهبهم (الدرجيني، 1974، ج1: 97. ابن الأثير، ش، د ت، ج6: 302-303). والنكار هؤلاء انشقوا عن الإباضية فانضموا إلى يزيد ابن فندين وأنكروا إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن فسموا نكارا. (الشماخي، 1995: 222. ابن الخطيب، ل، 2003: 234- 235)

ثالثا: أسباب الثورة

لم تكن هذه الثورة وليدة يومها، ولكن أسبابها الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية تراكمت على مر السنين فأثارت النفوس، وكان للدافع الديني والاقتصادي دور أساسي في تحريكها.

1- الدافع الديني

إن السياسة التي سلكها الخلفاء الفاطميون في بلاد المغرب جعلت نجاح الدعوة الاسماعلية وتقوية السلطان الفاطمي هو الهدف الأول والأخير، مما أعطى لهذه السياسة الصبغة الاستبدادية، إذ اتخذوا أسلوب القهر والعنف في محاربة وطمس مذاهب أهل المغرب من خارجية وسنية عل وجه التحديد، مستغلين مختلف الوسائل من أجل إزالتها وإحلال المذهب الشيعي الاسماعيلي محلهم، مما ترتب عن ذلك وضع داخلي متردد وقيام ثورات متتالية ضدهم بالرغم من تعددها واختلاف

أسبابها وأهدافها وتباينها بين عهد خليفة وآخر من حيث القوة والضعف ومن حيث نتائجها، فإنها في مجموعها كانت رفضا وسخطا على سياسة الفاطميين العامة. (بلهواري، ف، 1991: 2- 33)

وعليه، كانت حركة أبي يزيد ميدانا مواتيا لرجال المذاهب المضادة للشيعة الإسماعيلية، فكل فريق وجد في هذه الحركة ضالته، وفرصته لنيل غرضه أو لإيذاء خصمه فانضمامهم كان بمثابة ائتلاف وتحالف ضد عدو مشترك على حد تفسير محمود إسماعيل. (إسماعيل، م، 1976: 239)

2- الدافع الاقتصادي

لا مناص للباحث في ميدان دراسة أسباب حركة الخوارج المعارضة للحكم الفاطمي من وضع العامل الاقتصادي ضمن العوامل الرئيسية في تحريكها، إذ كان لسياسة الفاطميين المالية أثرها الفعال في دفع الأهالي إلى الثورة ضدهم. (يراجع تفاصيل مالية المغرب في سنتي 336هـ/948م عند كل من ابن حوقل، ن، د ت: 94. و البكري، ع، 2003، ج2: 198). (ابن عذاري، م، 1983، ج1: 193- 194. يراجع موضوع الأسعار عند بلهواري ، ف، 2005: 236)

رابعا: إعلان أبي يزيد الحرب على الفاطميين

وأمكن تقسيم حرب أبي يزيد إلى ثلاث مراحل لكل منها سمتها تميزها عن الأخرى، بدأت المرحلة الأولى ببروز قوة أبي يزيد في انتزاع مدن افريقية من سلطان الفاطميين إلى جانب صمود هؤلاء في معاقلهم، (ابن حماد ،ص، 1984: 30 - 31.ابن الأثير،ش،د ت ،ج6: 304) مما برهن على التعادل الذي ساد بين الطرفين، لتنتهي هذه المرحلة بحصار أبي يزيد للمهدية عاصمة ملك الفاطميين في سنة 333هـ/946م وبذلك هدد أمنهم واستقرارهم وبخاصة عندما استولى على القيروان، غير أنه سرعان ما تحول ذلك النصر إلى انهزام وفشل في محاولة اقتحام المهدية. ويعود السبب الرئيسي في تحول مسار هذا الصراع إلى انضمام صنهاجة إلى صف الفاطميين وتعديل كفة الحرب لصالحهم.(ابن حماد ،ص، 1984: 31. ابن الأثير، ش، د ت ،ج6: 305)

المرحلة الثانية وفيها تبادل الطرفان النصر والهزيمة بحيث نقل أبو يزيد مركز قوته من المهدية إلى محاصرة سوسة غير أن هذه المرحلة تميزت بظهور الشقاق في صفوف الاباضية الوهبية والمالكية، (ابن حماد ،ص، 1984: 31) ولم يبق معه سوى النكار من بني كملان وهوارة من قبائل زناتة، (ابن الأثير، ش، د ت ،ج6: 305) وفي هذه الظروف استعان الخليفة القائم بعامله على مدينة مسيلة لاسترداد نفوذ الفاطميين على تلك الأرجاء فنجح في ذلك عدا مدينة سوسة التي ظل الحصار عليها قائما. (ابن حماد ،ص، 1984: 31. ابن الأثير، ش، د ت ،ج6: 305)

المرحلة الأخيرة وفيها قضي على أبي يزيد بعد أن فقد أعدادا كثيرة من أنصاره، فتعقب المنصور آثاره وتم القبض عليه في سنة 336هـ/947م ومثل بجثته بعد موته. (ابن الأبار، ق، 1985 ،ج1: 291)

خامسا: سر قوة ثورة أبي يزيد

أ- شخصية أبي يزيد الفذة: على الرغم من تحامل المؤرخين جميعا باختلاف توجهاتهم ومذاهبهم على شخص أبي يزيد، فنعتوه بالمروق والزندقة والفساد والكفر، إلاّ أنه لم يكن بالشخص العادي بل استطاع أن يقود جيشا متنوع الملل والنحل، وهو يتجاوز الستين من عمره، وكان ما زال يحتفظ بحزمه وصلابة جأشه.(الدشراوي، ف، 1994: 248)

ب- مناصرة قبائل زناتة للثورة: لقد شكلت قبيلة زناتة عصب هذه الثورة ، إذ كان أبي يزيد منهم، وانطلقت شرارتها من بني واركوا أحد بطون بني يفرن الضاربين في جبل أوراس، ثم انضم إليه العديد من بطون زناتة أمثال بني برزال وبني زنداك وبني خزر رغم اختلاف مذاهبهم وذلك بدافع العصبية، لأن العصبية تقوم أساسا على رابطة النسب والنعرة على ذوي القربى، يكون لها الغلبة على المذهب الديني (الجابري، ع، 1982: 254)

فقد وجد هؤلاء في شخص أبي يزيد زعيما دينيا فلتفوا حوله ليعلنوا وليؤكدوا عدائهم ورفضهم للوجود الفاطمي على أراضيهم. (سنوسي،ي، 1986: 189- 248)

ج- مؤازرة جموع الإباضية الوهبية للثورة

خرجت الإباضية الوهبية معه حسب رواية الدرجيني حتى يشاركوه في نهب الأموال. (الدرجيني،ع، ج1: 99- 100) بينما حسب رواية ابن خلدون فقد كان خروجهم معه مشروط، وذلك إنّ هم ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى. (ابن خلدون ،ع، 1979، ج7: 13) والنصان يفسران عن مدى استمرار العداء بين الفرقتين.

د- انضمام المالكية إلى الثورة

كما انظم المالكية إلى جانب الخوارج لأنهم اعتبروها أملا وحيدا في الخلاص من حكم الخليفة القائم بأمر الله. ولأجل إضفاء الصبغة الشرعية، استلزم الأمر إصدار فتوى بوجوب القتال، إذ رأى هؤلاء أن قتالهم أفضل من جهاد أهل الشرك.(عياض، س، د ت،ج2: 318- 319. الدباغ، ت، 1978، ج3: 32- 33.) وقد سرد المالكي تفاصيل هذه الفتوى بذكر أشهر أعلامها في كتابه " رياض النفوس" من بينهم أبو محمد بن أبي زيد القيرواني، وأبو العرب التميمي، وأبو الحسن القابسي، وغيرهم. (المالكي، ب،1994، ج2: 297)

وحصيلة القول، أن أبا يزيد دفعته تطلعاته وطموحاته السياسية إلى مهادنة جميع الأحزاب المعارضة للفاطميين، مستغلا إياها في قتالهم لذا لم يتعجل في إظهار نواياه، بل آثر التمويه واستخدام الحيلة، فلم يمانع في قبول شروط الوهبية أعداءه التقليديين، ولم يجد حرجا في خداع المالكية حين أمرهم بقراءة مذهب مالك، فكان يتطلع إلى إنشاء دولة إباضية نكارية، وقد ظهرت تجليات ذلك في الانتصارات التي حققها في سنة واحدة كحصاره للحاضرة السياسية "المهدية"، واستيلاءه للمركز الاقتصادي الهام "القيروان"، وسكه للعملة، وعقده للعلاقات دبلوماسية مع أمويي الأندلس أعداء الفاطميين. فامتطى صهوة الدين غير عابئ بما خلفته هذه الحركة من ضياع في الأرواح والأموال، هذا إلى جانب زعزعة الاستقرار السياسي والأمن الاجتماعي. وعلى الرغم من فشل هذه الثورة في تحقيق مراميها

السياسية، إلاّ أنها كانت عاملا في دعم النفوذ الفاطمي ببلاد المغرب و فرصة للفاطميين في تعديل سياساتهم المذهبية والمالية اتجاه المغاربة.

البيبليوغرافيا

1- المصادر

1- ابن الأبار، ق،1985، الحلة السيراء، ط2، القاهرة، دار المعارف.

2- ابن الأثير،ش، د ت،الكامل في التاريخ، ط6، بيروت، دار الكتاب العربي.

3- ابن حامد، ص، 1984، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم،الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب

4- ابن حزم، ظ،2007، جمهرة أنساب العرب، ط4، بيروت، دار الكتاب العلمية.

5- ابن حوقل، ن، د ت، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.

6- ابن خلدون،ع، 1974، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر.

7- ابن عذاري، م، 1983، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط3، بيروت، دار الثقافة.

8- أبو زكرياء، يحي، 1984، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ط3، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

9- إدريس، ق،1985، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

10- الإدريسي، ح، 1983، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

11- البغدادي،ت، 1985، الفرق بين الفرق، ط1، مكة المكرمة، دار الباز للنشر والتوزيع.

12- البكري، ع، 2003، المسالك والممالك، ط1، بيروت، دار الكتاب العلمية.

13- الدرجيني، ع، 1974، طبقات المشايخ بالمغرب، قسنطينة، مطبعة البعث.

14- الرقيق، ق، 1990، تاريخ إفريقية والمغرب، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

15- الشماخي، ع، 1995، كتاب السير الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس هـ/11م، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. - 16- المالكي، ب، 1994، كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

17- المقريزي، ت، 1987، تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية من كتاب المقفى الكبير ، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

18- النعمان، ح، 1986، افتتاح الدعوة ، ط2، تونس، الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع ن ديوان المطبوعات الجامعية.
19- اليعقوبي، أ، 2002، البلدان ، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
20- عياض، س، د ت، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة.
21- مجهول، 1985، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، الدار البيضاء، دار النشر المغربية.
22- مجهول، 2005، مفاخر البربر، ط1، الرباط، دار أبي الرقراق.

2- المراجع

23- إسماعيل، م، 1976، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط1، الدار البيضاء، دار الثقافة.
24- الجابري، ع، 1982، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، ط3 بيروت، دار الطليعة.
25- الدشراوي، ف، 1994، الخلافة الفاطمية بالمغرب 296- هـ909/365 - 975م، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
26- بلهواري، ف، 1991، حركات المعارضة في المغرب الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الإسلامي، عين شمس، مصر.
27- بلهواري، ف، 2005، النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري /10م، رسالة دكتوراه دولة غير منشورة، لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة وهران.
28- بن عميرة ، م، 1984، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب.
29- سنوسي،ي،1986، زناتة والخلافة الفاطمية، ط1، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت.